الخطاب البصري في التلفزيون

صالح الصحن

مقدمة

يعد الخطاب البصري في السينما والتلفزيون وسيطا تعبيرياً حاملاً لعناصره السمعية والمرئية وفاعلاً مؤثراً في ذاكرة المتلقي، على وفق انساق متعددة من الاشكال والتمثلات هدفها الاقناع والتأثير والترفيه والامتاع والمعرفة. وهذا الخطاب لن يمر على المتلقي دون عناء فتعدد الاشكال وتقنيات العرض الصوري وتنوع المضامين المستمدة من اختلاف العقائد والمفاهيم والافكار والتصورات قد تصل احيانا الى التقاطع والصراعات بما ينعكس على شكل الشاشة ونظرية التلفزيون. الامر الذي يحفزنا لمعرفة تلك الكيفيات التي يُصنع بها الخطاب سمعياً ومرئياً في التلفزيون والذي يشكل رافدا كبيرا ومؤثراً في مساحة الخطاب الثقافي العراقي في عصرنا الحديث.

ضمن موضوع نقد الخطاب الثقافي العراقي يتجلى الخطاب البصري كأحد روافد الخطاب الثقافي بكثرة تحشيده لمقتنيات الصورة من تقنيات ومعالجات حركية تسترشد بالقيم الجمالية ومنظور العلامات الفاعلة فيها ، في انساق ومقاربات تشكل عالم بناء الصورة كوسيط للخطاب البصري. من هذا نجد ان التلفزيون محطة صورية جارية تواجه المتلقي على مدار الساعة لتحقق معه تواصلا عبر خطابها البصري. واذا ما اردنا ان ننظر ونتأمل ونتذوق ما يجري في هذه المحطة من مصادر مرئية نكون قد اشرنا الى النقد التلفزيوني كونه تقييما لما يعرض من مادة تلفزيونية من حيث بناءها الصوري واكتسابها عناصر اللغة الصورية التلفزيونية فضلاً عن ما تحمله من افكار ومواضيع ومفاهيم ملفوظة تعزز هذا البناء وتساعد على تقويمه، ومما يمكن الاشارة اليه هو التطور التقني الكبير الذي ساد علم الاتصال بتعدد كفاءة الاجهزة الانتاجية للتلفزيون وبظهور العديد من القنوات التلفزيونية الارضية والفضائية بما يكشف عن انفتاح كبير مع المشاهد الامر الذي زاد من تنامي الخبرات جراء المشاهدة والفرز والتمييز لتعزيز قدرات التذوق التلفزيوني والتي نعتقدها ارضية او حاضنة مناسبة لايصال لغة النقد التلفزيوني التي تستهدف المتلقي بشكل عام

مشكلة البحث

تأتي مشكلة البحث المتعلق بنقد الخطاب البصري في التلفزيون من كثرة مصادر بث انواع عديدة واجناس مختلفة منه عبر وسائل واشكال مقيدة بمؤسسات عدة تدير قنوات فضائية ، الامر الذي يخلق حالة الاختلاف والتقاطع والتداخل ، بما يشوش ذائقة المتلقي ، ولنقترب اكثر يمكننا التساؤل ، هل ان الخطاب البصري الذي تبثه اغلب المؤسسات الفنية خال من العيوب والاخطاء وهل انه حقق رغبة الجمهور ؟

تلك هي مشكلة الخطاب البصري في التلفزيون .

اهمية البحث

تأتي اهمية البحث من مدى قوة التأثير التي يتركها الخطاب البصري في ذائقة المتلقي سيما وان تقنيات صناعة الخطاب البصري قد تفردت بالجرأة والخروج عن المألوف وبما ينعكس على مستوى الخطاب الثقافي في البلاد .

اهداف البحث

يتمثل هدف الخطاب البصري في التلفزيون في كشف صياغات بناء الخطاب وشكله المرئي والتعرف عن اللغة المستخدمة فيه لغويا ومرئيا في الفعاليات التلفزيونية .

حدود البحث

تقتصر حدود البحث على ما تعرضه اغلب الفضائيات العراقية من اخبار وبرامج سياسية ومختلفة واعلانات وتقارير وتغطيات وفعاليات بالاضافة الى الدراما العراقية و للفترة التي اعقبت التغيير ما بعد ٢٠٠٣

الخطاب Discourse

الخطاب من الفعل خطب، والاسم الخطب وهو: الشأن أو الأمر، صغر أو عظم، وقيل هو سبب الأمر، ويقال: ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ وتقول: هذا خطب جليل، وخطب يسير، والخطب: هو الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال، ومنه قولهم: جل الخطب أي عظم الأمر والشأن[١]. ولن يذهب بعيداً صاحب القاموس المحيط الذي عرفه: الخطب: الشأن والأمر صغر أو عظم، وخطب الخاطب على المنبر خطابة وهي الكلام المسجوع المنثور، ورجل خطيب: حسن الخطبة[٢]. أما الخطاب بوصفه مصطلحاً فقد شاع في الأعلام والسياسة والأدب والفن، وهو ينضوي ضمن نظام اللغة، وقواعدها، ونحوها، وقد أحتل مساحة في أغلب الدراسات والأبحاث المتعلقة بالجمالي وتحليل النصوص، وحمل هدفاً تواصلياً ضمن بنية قائمة على العلاقة التخاطبية بين طرفين، وقد اختلف النقاد والمؤلفون في وضع تعريف خاص به يمثل الدلالات التي يحملها، فيقول مايكل ستابز: أن وحدة خطاب محدد يمكن تعريفها من حيث البناء أو الدلالة أو الوظيفة ((أن استخدام التلفزيون المكثف لأسلوب الخطاب المباشر وضروب سرد المقاطع والمدى الواقعي للتلفزيون وطابعه الدرامي والصحفي وإحداثه غالباً ما تكون تأثيرات خادعة، استطاع بذلك تحقيق تأثير سياسي مباشر داخل هذا المنظور))[٣] ويتجلى في هذا الاستخدام العمق اللغوي مع الشكل الصوري في تكوين ملامح الصلات الفكرية التي تجذب المتلقي وتخاطبه، باستخدام وسائل متنوعة لا تستبعد منها الإيهام والتمويه وإزاحة المعاني، مع الفارق البين بين الخطاب كرواية، والخطاب كصورة مرئية متحركة وفي بحثنا عن مضامين الخطاب وأغراضه ومناوراته، يجدر بنا السعي إلى أيجاد أسلوب فهم المنجز السمعي البصري بعد تفكيك محمولاته وعناصره من اجل التوصل إلى أنتاج المعنى ، والخطاب السمعي البصري الذي نبحث عنه، هو ذلك الخطاب الذي يحتمل أن يكون متعدد الابعاد وأن يتضمن المكونات

---

[١] ابن منظور ، (لسان العرب ، باب خطبة ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٨) ص٣٦٠

[٢] الفيروز ابادي ، (القاموس المحيط ،باب خطبة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ٢٠٠٨) ص ٧٦

[٣] جون كونر ، (نظرية التلفزيون ، ترجمة: أديب خضور ، سلسلة المكتبة الاعلامية ، دمشق ، ٢٠٠٠) ص١٤

والعناصر الأساسية الحاملة للوظائف المرئية والسمعية، وأن يتعدى إلى مساحات أوسع من مساحة النص وبوقائع تتفاعل فيها ثنائية الشكل والمضمون كبنية عضوية وحيوية تتبنى فكرة الأرسال بالمعدات السمعية والبصرية الى المتلقي، حاملة معها القيم الجمالية والفكرية، وبوعي معرفي غني، ((فالعلاقة العضوية القائمة بين الفكرة والاسلوب أو اللغة والمعنى، أنما تحوي في ثناياها ذلك البناء الموحد بين ما هو سمعي ومرئي، بين الصورة والمعمار/المعمار والفكرة. ولا يمكننا أن نناقش أي منهما بمعزل عن هذه العلاقة التبادلية التي ترهن نضوج احدهما بالآخر داخل وحدة الفلم المكونة من جميع عناصرهما))[٤] وإذا كأن الخطاب الذي نبحث فيه، يتناول نفس الفكر والموضوع نفسه المقتبس من نص سابق آخر، فهذا تكرار من نص إلى نص آخر وأن اختلفت ادواتهما.

ويرى الباحث أن التعريف الإجرائي للخطاب السمعي البصري هو: ذلك الوسيط الحامل للصورة المرئية المتحركة والمعززة بالمجرى الصوتي، بعده رسالة تواصلية أبلاغية تحمل أفكاراً ومعان، موجهة من مرسل إلى متلقٍ بسياق يحدد الفاعلية بينهما، وأن يتمثل الامتياز البصري لهذا الوسيط كمادة خطاب بإثارة الأسئلة وإقامة العلاقات السردية المرئية بين المكونات الصورية والصوتية ورموزها وما تحمل من إيحاءات بحثاً عن المعنى والحقيقة.

النقد التلفزيوني

النقد التلفزيوني هو الكاشف الحقيقي لمعطيات ما يجري على الشاشة من كلام وصورة، وهو الحامل للمقاييس والمعايير الموضوعية في رصد العروض وتقييمها وتحديد ما هو مناسب وما هو غير ذلك بعيدا عن المجاملة والميول غير المبررة .

ويعد التلفزيون مركز الجاذبية البصرية الذي يشتغل على استمالة الجمهور في عرض برامجه المتعددة ذات المساس بحياة الفرد والمجتمع وبشكل آني سواء كانت في نقل الاخبار اول بأول او بتسجيل وعرض البرامج والمسلسلات التلفزيونية والافلام .وعصر اليوم التقني المعلوماتي اضفى على التلفزيون " لغة " سمعية بصرية تتخذ من الشكل واللون والاضاءة والديكور والفضاءات الجذابة والمعبرة اوساطا تعبيرية لتصميم وتجسيد الفعل والحدث والمشهد عبر منظومة المؤثرات البصرية المتقدمة لزيادة درجة الادهاش والتشويق. ذلك ما يسعى لبناء دينامية التفاعل مع الجمهور على اساس الفهم والوعي الفني.

ويمر خطاب الصورة عبر منظومة من التقنيات الجمالية والسردية لتمرير شكله الخاضع لجماليات الاغناء والبلاغة وجاذبية الحدث وطريقة القص. ومما لاشك فيه يشكل العرض التلفزيوني اليوم مباراة ساخنة يقودها الشكل والابهار الذي يبثه الفضاء الواسع المصمم بتقنيات حركية وبصرية. وعلى النقد ان يبدأ بالنص ويعمل على تحليله من العنوان الى الكلمات والجمل والعبارات والصور والمشاهد وتقنيات السرد ومحمولات النص الفلسفية واشكال الابطال ومستويات الحدث واسلوب وطريقة التجسيد، وكذلك الى أي مدى تستطيع الصورة بحركاتها وزاوياها عبر تدفقها المستمر وحبكتها المحاطة بالمشاهد الدرامية ان تحمل الدلالة والرمز والمعنى المنشود. إذ أن " كل منظومة من الإشارات مهما كان مضمونها ومهما كانت حدودها من صور وإيحاءات

[٤] كاظم مؤنس ، (دراسات نقدية في جماليات لغة الخطاب البصري ، عالم الكتب الحديثة ، اربد ، ٢٠٠٧) ص١٩٢/١٩١

وأصوات ملحقة ومهما كانت أغراض ومركبات هذه المضامين التي نعود فنجدها في طقوس أو في بروتوكولات أو مشاهد تمثيلية، أنما تشكل منظومات ذات مدلول أن لم نقل أنها تشكل خطابات " [٥].

والنقد التلفزيوني كما يرى الدكتور نصر الدين العياضي هو وجهة نظر مختصة لخبير يملك الكفاءة المعرفية والفنية اللازمة للحديث عن التلفزيون ، ووجهة النظر هذه لم تكن متحيزة يوما ما الى هيئة السيناريو والاخراج او الانتاج اومنظومة التقنيات، وانما تعد نظرة تقويمية شاملة لكل ما يعرض على الشاشة ويشكل خطابا محمولا بادوات [٦]. و يختلف النقد التلفزيوني في معياره عند تناوله مادة اخبارية او مادة درامية او غنائية او اعلانية وحسب جنس المادة وطبيعة تركيبها وشكلها وتقنيات انتاجها ومضمونها . ومن المعروف ان كل منجز صوري له طقوس وقواعد ، وعلى الناقد ان يكون موضوعيا في معاييره النقدية ،وان يراعي الذائقة العامة للجمهور التي لا تخلو من الاحساس الفني والجمالي ، وان يكشف ويعري الخطاب الصوري الذي يشجع سلبية الاطفال ويحثهم على التمرد ويغريهم على مشاهد العنف، وعليه التحذير من الاكثار من ظاهرة الترفيه على حساب التفكير والتأمل كما اشار اليه الباحث الامريكي بوستمان نيل[٧]. والنقد لا يقتصر على الكتابة فقط. فقد اتخذ شكلا اخر. وفي هذا يشير د. نصر الدين العياضي في كتابه المذكور الى ان التلفزيون الفرنسي يبث ستة برامج تنقد بطرق مختلفة التلفزيون سواء باستعادة ارشيفه وذكريات الاشخاص او من خلال توجيه نظر الصحفيين ومسؤولي القنوات التلفزيونية الى الانحياز او التجاوزات او القصور الذي يشير اليه المشاهدون او السخرية من نجوم التلفزيون ورجال السياسة والاستهزاء ببعض البرامج التلفزيونية لغبائها. يتضح من هذه الغاية هو إشاعة الثقافة النقدية التلفزيونية لدى المشاهد / المتلقي / المتذوق .

فنقد خطاب التلفزيون هو تقويم للمنجز المرئي بمختلف اشكاله وانواعه وهو معني بنقد الاغنية والاخبار والبرنامج والاعلان وكل الفعاليات التلفزيونية والسينمائية التي تحتل مساحة عرض كبيرة في الشاشة. مثال على ذلك، ما عرضته بعض القنوات التلفزيونية الفضائية المحلية من نقل لمباراة كرة قدم جرت في ملعب الشعب الدولي بكادر يبدو انه بحاجة الى مهارات وقدرات اعلى مما هو عليه. اذ ظهرت عيوب الاخراج التلفزيوني من خلال حجوم اللقطات والزوايا وفقدان السيطرة على القطع والنقلات المنساقة وراء فعل الكرة المتحرك والمثير، مما ادى الى تسطيح الملعب بلقطات عامة وكبيرة افقدت التركيز فاعليته في المتعة والمتابعة الدقيقة لنظم اداء الكرة حسب القوانين والاعراف الرياضية .

ان العالم السمعي البصري يتحدث بلغة الحواس ، وان تياره المتدفق المتلألئ بالصور وسرعته القاهرة وإيقاعاته الطبيعية وأسلوبه التصويري، كلها جزء من اللغة الصورية. والخطاب السمعي البصري "التلفزيوني والسينمائي" ليس هو خطاب الأدب ولا نسخة منه، كما يطرح العالم بشكل مباشر، فيقول جان متري في ذلك:" يقدم الفيلم لنا خطاباً عن العالم يرتكز على معطيات محسوسة وماثلة كامنة في المادة، ويتم تساميها على الفور إلى متعال، عن طريق توسط الرؤية الشخصية للكاتب وبواسطة أشكال ومظاهر جديدة وأسرار غامضة

[٥] روجيه اودأن : السينما وأنتاج المعنى، ترجمة: فائز بشور، المؤسسة العامة للسينما، دمشق، ٢٠٠٦ ، ص٨.

[٦] نصر الدين العياضي: مقدمة في نقد التلفزيون ، دار الافاق المشرقة / ناشرون / الاردن صفحة ٨٣

[٧] في كتابه ازمة التعليم ،ترجمة حسين تمام، الجمعية المصرية للمعرفة والثقافة العالمية ،عام ٢٠٠٢ ، ص ٤٥

جديدة. "[٨] ويكشف لنا م تيري أن الفيلم "سينما، تلفزيون" يحمل خطاباً كونه قولاً، كلاماً، حكياً يتوجه إلى المتلقي لفظاً وكتابةً وصوراً مرئية متحركة، مثقلة برموز اللغة السينمائية "السمعية والبصرية" وذات فاعلية وتأثير بفعل الزخم الدرامي، و الخطاب حسب مفهوم جيرالد برنس، هو أقرب إلى ما اشتغل عليه المؤلف في التوصيفات التي استخرجها من منظومات المنجز المرئي، فيعرفه في معجم المصطلحات السردية قائلاً: " الخطاب يحتوي على "مادة " وسيط للإظهار: شفاهي أو لغة مكتوبة، صور ثابتة أو متحركة وإيماءات... الخ، و" شكل" يتألف من مجموعة من التقريرات السردية التي تقدم القصة، وبشكل أدق، تتحكم في تقديم تتابع المواقف والوقائع، ووجهة النظر التي تحكم هذا التقديم وإيقاع السرد، ونوع التعليق"[٩] ، كما أن استخدام التلفزيون المكثف لأسلوب الخطاب المباشر وضروب سرد المقاطع والمدى الواقعي للتلفزيون وطابعه الدرامي والصحفي وإحداثه غالباً ما تكون تأثيرات خادعة، استطاع بذلك تحقيق تأثير سياسي مباشر داخل هذا المنظور [١٠] . يتجلى في هذا الاستخدام العمق اللغوي مع الشكل الصوري في تكوين ملامح الصلات الفكرية التي تجذب المتلقي وتخاطبه، باستخدام وسائل متنوعة لا تستبعد منها الإيهام والتمويه وإزاحة المعاني، مع الفارق البين بين الخطاب كرواية، والخطاب كصورة مرئية متحركة ، فكل منظومة من الإشارات مهما كان مضمونها ومهما كانت حدودها من صور وإيحاءات وأصوات ملحقة ومهما كانت أغراض ومركبات هذه المضامين التي نعود فنجدها في طقوس أو في بروتوكولات أو مشاهد تمثيلية، أنما تشكل منظومات ذات مدلول أن لم نقل أنها تشكل خطابات [١١] .

وفي لغة الشكل الفني، تسجل الصورة جزءً من فضاء حسب تعبير جان متري[١٢]، ولكنها لا تخرج عن حدود الإطار الذي يبث فيها روح "الكل " من بنية مستقلة ومن عناصر تخضع للترتيب المصمم للقيمة الجمالية والفكرية في الصورة.

الخطاب البصري في الاخبار والبرامج السياسية

تشحن الماكنة الاعلامية التي تتبناها القنوات التلفزيونية الحكومية والخاصة كميات كبيرة من نشرات الاخبار القصيرة والطويلة والبرامج المتعددة الاشكال والاتجاهات، وبما تحمل من خطاب يبعث عن التأرجح والتباين من حيث الاتجاه الفكري والايدلوجي، والاختلاف الكبير في تقنيات العرض والشكل البصري المتنوع ، وبطريقة تقديم الاخبار وطريقة عرض الصور، وكذلك امكانية المعالجة بالمؤثرات الصورية، وامكانية الاتصال مع الشخصيات المشاركة في تحليل الاخبار عبر الاقمار الصناعية ومنظومات ال sng ولأكثر من عاصمة، فضلا عن تحديث اجهزة البث والارسال وبكفاءة عالية في تحسين الصورة ، واضافة المؤثرات الصورية لها بأسلوب التعامل مع الطوارىء والمتغيرات التي تتضمنها النشرة، ومما يمكن الاشارة اليه هو اسلوب التحكم بادارة تحرير الخبر وطريقة عرضه وعملية انتقاء المفردات والمصطلحات، مع استخدام الوثيقة والصورة وتركيب المؤثرات السمعية

[٨] جان متري: علم نفس وجمال السينما، القسم الأول، ترجمة :عبد الله عويشق، وزارة الثقافة، دمشق، ص ٢٩٧

[٩] جيرالد برنس: المصطلح السردي، معجم مصطلحات، ترجمة :عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،٢٠٠٣ ، ص ٦٢

[١٠] جون كونر : نظرية التلفزيون، ترجمة :أديب خضور، سلسلة المكتبة الإعلامية، دمشق،٢٠٠٠ ص١٤

[١١] طاهر عبد مسلم : الخطاب السينمائي من الكلمة الى الصورة دار الشؤون القافية العامة، بغداد،٢٠٠٥ ص ١٤٤

[١٢] جان متري، مصدر سابق، ص ٧

والبصرية، لاثراء القوة التعبيرية للخبر والحدث الداعمة له ، بما يتيح لنا كشف اساليب الانحياز لهذه الجهة او تلك من هذا الطيف المتعدد الذي تحتويه باقات المجتمع العراقي من سنن وشرائع ومذاهب واطياف واتجاهات.
و لن نحتار كثيرا في البحث عن الخطاب الذي يلوح بالتحريض والعنف والطائفية، وكذلك عن الطرف الاخر الذي يتخذ من التوازن والحياد مع قضايا عامة الشعب ومصالح الجمهور. ومن خلال العرض البرامجي للمواضيع السياسية يتعرض الخطاب الى منعطفات تعيق بناء خطاب ثقافي عراقي يعتمد الميادين كافة ومهنية عالية. وقد يصاب هذا الخطاب بنزعة القصور في التعامل مع تقبل الراي الاخر، الامر الذي يثلم كفة ميزان التوازن في طريقة تبادل الاراء واحترام الاخر وتغليب الخيار الوطني والحضاري للبلاد. اذ تعرض بعض نشرات الاخبار نماذج من صور خرائط وهي تقسم العراق الى اقاليم وبخطوط حمراء شكلت تطبيعا تدريجيا لذائقة المتلقي وذهنيته التي تستنكر مثل هذه الدعوات والصياغات التي ساهمت في رسم التفرقة ، كمصطلحات: المكون الشيعي والمكون السني واقليم السنة واقليم الجنوب، واشاعة مفهوم الرضوخ الى ثقافة التقسيم .

ولقياس مستوى الخطاب البصري للتلفزيون عند بعض القنوات وما يضمره من قناعة واعتقاد خاص، نستطيع ان نراه يتجاهل احيانا تداول الاخبار عن انفجارات كبيرة ومآسٍ تسببت لعدد كبير من المواطنين. فمثلا نرى ان بعض القنوات تعرض تغطيات خاصة عن الانفجارات حزنا وتعاطفا، يعرض هذا الخطاب برامج فكاهية منتقاة بعناية لعرض اجساد الفتيات والحركات الايقاعية، او قد تقتصر نشرات اخباره على تناول الحدث بشكل هامشي ومختصر او عدم تصدر النشرة لأخبار الانفجارات، وليس هناك ما يبرر عدم المعرفة بالخبر بفضل سرعة الانتشار التقني المعلوماتي وتعدد المصادر والوكالات الاخبارية، بما يسجل عدم المواساة لأهالي الضحايا من ابناء المجتمع، وهو كشف لحقيقة التباين الحاصل في منافذ الخطاب.

وقد تتعمد بعض البرامج السياسية في عدد من القنوات باستضافة شخصيات تتطابق لديها الافكار والاتجاهات مع الاخرين ضمن الاتجاه الواحد، لكنها تتجاهل حضور الطرف الاخر الذي لايمكن الاستغناء عنه، وتتعمد برامج اخرى التلاعب ببعض المفردات على اساس الموقف من الحدث والواقعة. فالمستهدفين في الانفجارات يقال لهم قتلى، ضحايا، شهداء وغيرها من التوصيفات التي تنسجم مع موقف القناة والاتجاه الداعم لها ، اما طريقة عرض الصور بلقطات قريبة او بعيدة لضحايا الانفجارات واشلائهم وتمثيل الاجساد مع حجم الكارثة الحاصلة فقد تبعث احيانا على الصدمة. او قد تعبر احيانا عن ترهيب المجتمع وتدمير بناه النفسية والمعنوية والحياتية، فضلاً عن غايات كشف الجرم الذي يقف خلف هذه العمليات.

ان السينما والتلفزيون منافذُ الخطاب البصري وفضاءاته لا تتعامل مع الفعل والحدث والوقائع على اساس نقل الاخبار فحسب، وانما تصل الى مستوى تحليل الاحداث وقراءتها الجدلية على اساس تعدد وجهات النظر واسلوب التعامل مع تداعياتها، وكذلك كشف مستويات تحليل الصورة والوثيقة والمشهد وكل العناصر المرئية بما يتوافق مع هذا التوجه او ذاك، حتى لو وصل الامر حدود التصرف بحقائق المضمون، وهذا مايظهر في برامج الحوارات والافلام الوثائقية والتسجيلية التي تتناول الكثير من المعضلات المثيرة للجدل .

الخطاب في بعض البرامج

تهتم بعض الفضائيات بانتاج برامج ومسلسلات درامية فكاهية لاجل الترفيه وبحركات استعراضية راقصة مدهشة وغريبة، ولغرض استمالة الجمهور وضخ مشاهد الاستعراضات الايقاعية الراقصة، وبما يثير الغرائز والمدركات الحسية بالتركيز على اللقطات القريبة والمتوسطة المتوافقة مع النغم الايقاعي الراقص. وهذا الاسلوب المتبع في البهرجة بفخامة الديكورات وزركشة الملابس المثيرة والفضاءات الساحرة جاء لأغراض تمرير رسائل وافكار ساخرة عبر اشكال مبهرة، فيما عملت بعض القنوات الممولة من جهات خارجية بعض البرامج التلفزيونية التي تدعي التحديث، لكنها تنفذ فكرة التطبيع مع اجواء واخلاقيات المجتمعات الاخرى. اذ تبنت البرامج التي تعتمد النكات الساخرة والهزل بالايحاءات الجنسية والكلام باللغة العامية الدارجة مع تناول مفردات الخمر والجنس والهلوسة، وكأن الامر لم يعد غريبا على ثقافة المجتمع، وبما يخدش الحياء ويثلم مظاهر التحفظ التي عرفت بها العائلة العراقية المحافظة على تقاليدها ، فالقنوات ذاتها اعتمدت في خطابها القصدي اساليب مثيرة للجدل والاستفهام. فقامت ببرامج تجولت فيها.

الكاميرا باحياء فقيرة لتصوير البؤس الواضح على طبيعة سكن الفقراء في احياء من الصفيح ومن البلوك، وباتت توزع الادوات الكهربائية والمبالغ النقدية وبناء البيوت وترميمها، وكأن القناة التلفزيونية مؤسسة خيرية او شركة انتاجية داعمة للمشاريع الصغيرة والكبيرة، اضافة الى واجباتها الرئيسية في صناعة وبث الثقافة والاعلام والفن *.

قد تعتقد مثل هذه القنوات ان ما يدفعها لصناعة هكذا برامج، هو تسليط الضوء على الاخفاقات التي تتكرر في حقول خدمة الجمهور والمجتمع جراء ما تعانيه المؤسسات الحكومية من معضلات الفساد والاهمال وهدر الاموال في مشاريع فاشلة، لكن الوجه الاخر لأهداف هذه الفكرة لا يخلو من كشف وابراز ضرورة العناية بشعب جائع وبائس) تتصدق عليه (الجهات الخيرية رغم ثراءه الاقتصادي .

وتبث بعض الفضائيات العراقية بعض الاغاني لمطربيين عراقيين وبمستوى الموجة الجديدة الهاربة عن اصول وتقاليد الغناء العراقي الاصيل، واللجوء الى صناعة فضاءات وديكورات براقة تتراقص عليها عشرات الراقصات العاريات بلقطات قريبة (close) لمناطق ساخنة في الجسد في سعي لرفع مستوى كفاءة الاغنية وترغيبها للجمهور. مع ان بعض هذه الاغاني حملت مفردات في خطابها اللغوي خارجة عن السياق المتداول في الحياة الاجتماعية ، كمفردات: (بتل بتل، موت الكرفج، لنعل ابو اللي دزج، على حظي المصخم) وغيرها من العبارات والكلمات التي تخدش الحياء وتهشم مضمون الخطاب وتحطم الذائقة[١٣]*، وبما يتوافق مع التدني الذي تكالبت عليه من خلال اجواء الليل والتصوير في غرف النوم والملابس الساخنة والحركات الراقصة الماجنة التي تشكل معا خطابا ثقافيا لا يسهم الا في افساد الحياة وتشويه الاذواق ، كما تعرض بعض القنوات برامج تلفزيونية ميدانية تتجول فيها الكاميرا لتسأل عامة الناس عشوائيا عن معان لكلمات معينة قد تحمل بعض الغرابة

والاستفهام. غير ان اجابات اغلب الافراد لا تكون صحيحة مما يكشف عن تدني الوعي وضعف المعرفة. وبتكرار هذه البرامج والتركيز عليها نكون قد خلقنا ظاهرة السذاجة والجهل بما يحط من قدر ومكانة المجتمع ومستواه الثقافي والمعرفي .

وفي الدراما التلفزيونية يشكل الخطاب الثقافي العراقي مصدرا متباينا في حالة تناول المادة التاريخية في الشاشة. وهي قد تحمل من الوقائع التاريخية التي تحتمل التاويل والتفسير والتحريف وتباين في وجهات النظر الدينية والسياسية والاجتماعية .

وفي الوقت الذي تتنافس فيه القنوات التلفزيونية المرتبطة او التابعة لهذه الجهة او تلك، تتبارى على انتاج المنجز التلفزيوني الذي يتناول الواقعة المعينة او الشخصية التاريخية او الدينية المعينة والتي تشكل محط اختلاف وجدل تاريخي وديني ومذهبي، بما يتيح الحرية لاية جهة ان تنظر من الزاوية التي تعتقدها صحيحة. رغم ان هكذا اختلافات لا تخلو من الحساسية والتناقصات والصراعات التي تؤثر سلبا على الذائقة الوطنية التي تعتمد الحقائق المتوازنة*.

وقد تشبّع الخطاب البصري في بعض القنوات العراقية ذات الطابع الديني بالعرض الواسع للبرامج والفعاليات التي تتناول نقل الطقوس والشعائر الدينية والتجمعات الواسعة، فضلا عن برامج الحوارات وانتشار ظاهرة الرد على الاخر بواقع تصوير المصادر والكتب والوثائق والتعرض للوقائع التاريخية والدينية من منظور مختلف .

وفي العرض البصري للبرامج تكثر ظاهرة عرض لقطات قريبة جدا لعناوين الكتب ومصادرها ودور نشرها والاسطر المطلوب ابرازها لغرض تثبيت الحقائق او الاكاذيب بما يساعد على تصعيد وتاثر لغة الخطاب في الكلمة والصورة بين ابناء البلد الواحد، وبما يبعث على القلق والتوتر والصراع وبقصدية التسقيط السياسي والديني والاستحواذ على قبول واستمالة الراي العام.

وتشكل القنوات الفضائية العراقية الدينية منافذ ليست بالقليلة بضخ الفعاليات التلفزيونية الدينية المتعددة الاجناس والاشكال. فهناك البرامج الحوارية التثقيفية والفقه والشريعة والقانون والفتاوى والاشكالات الشرعية او برامج نقل الاحاديث الدينية عبر المنابر. وهناك نقل وقائع الطقوس الدينية التي تشكل فعاليات تعبيرية تشارك فيها الالاف المؤلفة من المهتمين بالقضية ومؤيديها. فالخطاب الديني البصري في العراق خلق نوعا من التوتر والتضاد باسلوب العرض وطريقة تقديمه .

يمكن تصنيف اجناس عرض الفعاليات التلفزيونية التي تتبنى الخطاب الديني على وفق مايلي :

- القران الكريم ترتيلا او تفسيرا، والادعية واحاديث السنة النبوية والاحاديث الدينية للائمة عليهم السلام والمفكرين الروحيين.
- نقل صلاة الجمعة وخطبة الجمعة من الجوامع
- حوارات دينية داخل الاستوديو
- احاديث المنابر الحسينية (نقل وتسجيل من المساجد)

- دورات تعليم القران الكريم
- الطقوس الدينية في المولد النبوي الشريف وفي شهر محرم الحرام بكل فعاليتها
- اسئلة واجوبة وفتاوى عن الاشكالات الشرعية داخل الاستوديو
- احاديث دينية من الاستوديو
- مسلسلات دينية عن شخصيات ووقائع اسلامية بـأنتاج اغلبه عربي او اجنبي
- التواشيح والاناشيد الدينية
- برامج وثائقية تعريفية باماكن العبادة والمراقد المقدسة والاثارية

ورغم المشتركات السائدة التي تحملها الفعاليات الدينية المختلفة والمتنوعة عبر التعدد المختلف من القنوات التلفزيونية، الا ان هناك فروقات واضحة في شكل الخطاب ومضمونه الذي قد يصل الى مدى عمق التزام هذه القناة او تلك وهذا الخطاب او ذاك بالمرجع الفكري او الديني او العقائدي او المذهبي المتبع وبشكل يبعث احيانا عن التزمت والتعصب والنظرة الحادة ، ويتطلب الخطاب الثقافي العراقي وعيا عميقا لجدلية الثوابت العقائدية في التوحيد والقران الكريم والسنة النبوية والتي تشكل جسرا كبيرا ورصينا في ربط العقائد والافكار والمفاهيم على اساس الوحدة .ويتطلب كذلك التعامل مع الوقائع التاريخية بشيء من المرونة وعدم الاطلاق بسبب كثرة التدوينات التاريخية للوقائع وبشكل مختلف ومبالغ فيه. وقد يصل احيانا الى حدود التشويه والتحريف بما يعمل على قوة وخطورة الاختلاف الذي نخشاها ان تتجاوز حدود مثابات الانشقاق والفتنة .

ومما يشار اليه ان بعض القنوات العراقية التي تبث من خارج العراق وبعدد من العواصم وبدعم مالي ضخم فاق السمة الانتاجية لدعم اغلب القنوات الاخرى ، يبدو انها تمسكت بنصيحة راعي القناة على الا تلفظ اسم الجلالة وكل ما يتعلق بذكره وتجلياته. ولا علاقة لها باي فعالية ايمانية دينية روحية تمسكا بما يسمى بالعلمانية ومواكبة العصر الحديث. ونسيت ان المنجز البصري الديني والايماني هو جزء من الحياة. لكنها سخرت لبرامجها فنانات من الدرجة الهابطة وفي ارقى السهرات واوسع التغطيات الخاصة والتي نالت الحصة الاكبر من شاشة العرض. ولو اجرينا احصائية بث يوم واحد - ٢٤ ساعة) - لهذه القناة المقصودة فلن نجد أي ذكر) لمفردة او صورة تتجلى بعظمة الله سبحانه وتعالى .

وتبحث القنوات التلفزيونية عن الاعلانات التي تعزز من رصيدها المادي والانتاجي. اذ بدأت تتنافس فيما بينها على تباين اسعار العرض للمادة الاعلانية وتروج لبضائع استهلاكية وكمالية لم تحمل الصفة الصناعية الوطنية) غير المصنعة عراقياً). فقد تبث القنوات الفضائية على مدار الوقت اعلانات السيارات والعطور والرز والشاي والمساحيق وادوات المكياج والمشروبات والمرطبات وبعدد لا يحصى من البضائع غير العراقية بما تؤسس لثقافة اننا لسنا معنيون بالصناعة وان الصناعة ليست من اختصاصنا كشعب ، وان هذا الامر ينعكس على الواقع النفسي والمعنوي للفرد وهو يطلع عبر الفضائيات وخطاباتها على احدث ما توصلت اليه العلوم التقنيه والهندسية والصناعية من تطورات، في حين يحق للانسان العراقي ان يتسائل : لماذا لانصنع نحن ؟ ولماذا لانرى عبارة (made in Iraq) في منازلنا وشوارعنا واسواقنا ؟ وكأن مساحة العرض البصري للاعلانات تقصدت ان تحرمنا من رؤية هذه العبارة مما شكل تراكما مفهوميا مترسخا في الذات بان يحرمها من الاعتداد والفخر والثقة بالنفس ، ولنتصور مشاركة احدنا في برنامج

مسابقات محليا كان ام عربيا وطرح عليه سؤال :ماهي اهم الصناعات التي تشتهر في العراق ؟ والجواب هو حجم الاحراج الذي سيلاقيه هذا المشارك في المسابقات .

وتشكل الاعلانات احيانا تحديا اعلاميا وسياسيا في بعض الحالات مع الدول والدوائر التي لـديها معضـلة وازمة ، والمنتجات الدينماركية الغذائية والالكترونية (التي جوبهت بالمقاطعة من بعض الدول العربية والاسلامية عقب صدور الصور والافلام التي تسيء الى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه واله وصحبه وسلم من قبل احـد الاشخاص الدينماركيين) كانت مثالا لخطاب يراد منه الاختراق والتجاوز وعدم احترام اعراف وقيم وعقائد الدول ، مما ساعد على اجراء حملة كبرى لمقاطعة البضائع واتلافها كي لاتسبب في جرح مشاعر الشعوب الاسلامية

ومن اخطاء الخطاب البصري في التلفزيون هـو محاولـة بعـض الـوزارات والمؤسسـات الحكوميـة عمـل برنامج تلفزيوني اسبوعي يستعرض فيه اهم انجازاتها ومتابعة اخبارها، الا ان تصميم البرنامج لا يخلو من تعظيم المسؤول وطرح اخباره، وعرض صوره بشكل مبالغ فيه ، وكأن البرنامج خصص له وليس لسواه من المواضيع ، فضلا عن ان مستوى تناول المواضيع والتقارير هو عملية تجميل اداء هذه الوزارة او المؤسسة وحجب القصور الواضح في تدني مستوى الخدمة المقدمة للمجتمع ، وهذا يكشف عن تدني مستوى الخطاب وضعف عنـاصر بنائـه التـي فقدت الموضوعية وراحت باتجاه مدح المسؤول عـلى حسـاب كفـاءة الانتـاج ومسـتوى الاداء الـذي يشـتكي منـه الكثيرون .ومثل هذا النوع من البرامج لا يرتقي الى مستوى الحقيقة بصريا لأن الكاميرا تذهب الى المنجز وتتجاهل المعاناة والاخفاقات .

ان التنوع المعروف لعدد القنوات التلفزيونية العراقية وبمختلـف توجهاتهـا واشـكالها المصـممة، يتـيح للمشاهد ان يطلع على مساحات كبيرة واسعة من انواع واشكال وافكار البرامج والفعاليات التلفزيونية. وقد تصل به حد الحيرة في اختيار مشاهدة هذه المادة في هذه القناة او تلك، ولكن المراقب لأداء فعاليات هذا التنوع وهذا العدد يدرك ان هناك تشابها كبيرا بين برامج القنوات وافكارها واشكالها وطرائق تقـديمها ومعالجاتهـا الاخراجيـة، فضلا عن ان هناك محاولات لأقتباس افكار واشكال برامج عربية او اجنبية وتقليدها ، الا ان مثل هذه المحـاولات لم تكن موفقة احيانا بسبب ضعف الاداء والمعالجة البصرية للبرنامج سيما وان الفضاء حريص على ان يطلعك عبر عشرات الالاف من القنوات الفضائية العربية والاجنبية بما يتيح للمتلقي المشاهد ان يتعرف على شكل ومضـمون البرنامج المقدم عربيا او عالميا والمقارنة مع النسخة المقتبسة المحلية .

مواضيع الخطاب

الخطاب الثقافي المرر سمعيا وبصريا في الدراما التلفزيونية والبرامج المتنوعة يتعرض الى بعـض القضـايا الهامة في حياة ومستقبل الانسان والمجتمع. ولكنه يهمل تنـاول مواضـيع هامـة اخـرى لهـا مـن اهميـة كبـيرة في حياتنا. فالسيناريوهات التي تكتب لم تحاكي قضايا جوهرية مثل: لمـاذا نحـن غـير قـادرون عـلى الصـناعة قياسـا بالشعوب الاخرى ؟ ولماذا لاتنهض السينما في العراق ؟ ولماذا لا نملك ابنية وابراج شاهقة وملاعب رياضـية كبـيرة. ولماذا لا يتناول قضايا عدم الحفاظ وعدم ترميم او تأهيل وادامة الاثار الحضارية والتراثية في البلاد ...؟ وان كتاب السيناريو يعرفون جيدا حجم الفساد والتدهور الذي وصلت اليه مفاصل الحياة وبكافة ميادينها، لكـنهم حـاولوا المرور على مثل هذه القضايا ولكن دون عمق. هذا بالاضافة الى المستويات التي لم تصل اليها ميـادين وقطاعـات

التعليم والصحة والنقل والسياحة. وهل من المعقول ان بلدا مثل العراق لا يملك خطوط المترو التي تمتلكها دول لا تمتلك ثروة العراق؟ ولماذا نتحول الى شعوب مستهلكة فقط او سوق لتصريف بضائع الدول الاخرى ؟
ولم يتناول الخطاب الثقافي العراقي في برامجه التلفزيونية اين يذهب الفتية والفتيات من الشباب الذين تخرجوا من الجامعات العراقية ؟ وكم عددهم ؟ وكم عدد الذين تم تعيينهم ؟ وكم عدد الذين يبقون دون تعيين ؟ وهل اخذ بعين الاعتبار ماذا لو بقي اكثر من خمس او عشر سنوات دون ان يمارس اختصاصه ؟ واين تذهب معارفه ومعلوماته ؟ وكم صرفت عليه الدولة ليكمل دراسته على اكمل وجه ؟ ان الثقافة التي تحاكي هكذا تساؤلات يكون قد وضع الجهات الحكومية المختصة والمعنية امام استفهام لابد من الاجابة عليه لأجل معالجة هكذا معضلات معقدة وهامة في حياة المجتمع.

وتفتقر القنوات التلفزيونية العراقية الحكومية والخاصة الى الاهتمام الامثل ببرامج الاطفال والاعتماد على بعض البرامج التقليدية غير المتجددة التي تعتمد الترفيه المجرد من عناصر التحصين المعرفي والذهني، الامر الذي يسمح باختراق رغبات واذواق وافكار ومشاعر اجيال عديدة من قبل خطاب الاخر الموجه والحامل لمقتضيات التمرد على القيم والاعراف الاجتماعية والاخلاقية. وهناك اسباب تقف وراء خلو الفضاء البصري المخصص للاطفال عن عناصر الاهتمام وهي :

- لم تكن هناك محاولات وتجارب جادة تعتمد الطفل غاية في توجهاتها الفنية والاعلامية والثقافية
- لم تعمل المؤسسات المعنية بتامين احدث الاجهزة التي تعنى بصناعة الدمى وافلام الكرتون على وفق اجهزة الحاسوب وبرامجه المتطورة
- ليست هناك دائرة مختصة بتربية برامج الاطفال وعدم وجود قناة متخصصة ببرامج الاطفال
- عدم وجود دورات لتاهيل وتطوير كفاءات الراغبين في العمل في برامج الاطفال
- عدم فتح قنوات الاتصال مع المؤسسات العربية والاجنبية التي سبقتنا في تجارب برامج الاطفال
- عدم تخصيص ميزانية خاصة لدعم مشروع تربية برامج الاطفال .

وفي برامج تعتمد الكشف المتعمد والقصدي في اختيار المواضيع التي تتبناها بعض القنوات التلفزيونية وعن مواضيع لم يتعود عليها المشاهد العراقي لمظاهر محرمة معززة بوثائق مصورة ومفبركة احيانا كونها من المواضيع التي تحسب على الملفات المحرفة او ضمن الخطوط الحمراء لكثرة ما تتسم بالحساسية الاخلاقية والسلوكية كالمخدرات والعلاقات المحرمة وطرح المواضيع الجنسية والتعرض على اماكن البغاء وشبكات الدعارة وموضوع الشذوذ الاخلاقي.. لغرض اثارة الراي العام وجذب عدد اكبر من المشاهدين والتبجح بألجرأة وبمفردات (حصريا ، سبق صحفي ، خاص جدا (وكأن الكشف عن هذه المواضيع يعد" فتحا " للمعضلات التي اعتادت بعض الشبكات زراعتها في هذا المجتمع او ذاك اذا ماوجدت لها الارض الخصبة لادامة نموها عبر سقيها بمياه واسمدة تعد بمثابة الترويج لمثا هذه المواضيع. وقد تعد مادة دسمة للتدوال وطرحها عرضة للتفسير والتاويل والاجتهاد عبر الافكار والمفاهيم المتعددة .

وان الشيء الاهم من هذا هو ان المؤسسات الاعلامية التي تطرح هكذا ملفات لم تسعَ مهنيا ولا علميا ،لا بدافع المسوؤلية للعمل ولا التنسيق مع الجهات ذات العلاقة، لغرض المكافحة او التاهيل او الحد من هذه الظواهر، ولو بقدر نسبي من التغيير او التنسيق مع مراكز الابحاث المرتبطة بالدوائر المعينة بشوؤن الافعال والسلوكيات المشار اليها و لكن الاخطر والاغرب هو ان تسعى بعض المؤسسات الانتاجية لأنتاج هذه المواضيع

بمشورة جهات خارجية لأغراض قد تصل حدود فضح البنية الاخلاقية للمجتمعات وتطبيع الجمهور على مثابات التحلل والانحراف الاجتماعي بدوافع مبدأ الاسقاط واشاعة ما وراء الحداثة وما يجب على المجتمعات ان ترى وتتكيف .

ولا يعتمد خطابنا الثقافي في السينما والتلفزيون على المادة التلفزيونية او السينمائية المنتجة عراقيا فقط، وانما يتعدى ذلك حدود ما تعرضه القنوات التلفزيونية في فعاليات برامجية او درامية عربية او عالمية شريطة ان نفهم خطط العرض فيما اذا كان بمستوى التبني ام بمستوى الاطلاع ومعرفة خطاب الاخر. فضلا عن ان الخطاب الثقافي العراقي سمعيا ومرئيا يمكن ان يسهم في زيادة المعارف ومساحات الترفيه والتشويق والاطلاع على ما يجري في المجتمعات الاخرى من خلال ضخ برامج وفعاليات متعددة عربية وعالمية .

وقد تنساق بعض القنوات التلفزيونية الى التاقلم مع مبدأ الظاهرة ارضاء لرغبة الجمهور دون الرجوع الى التاثيرات المضادة المتولدة جراء هذا التاقلم . فمثلا بدات القنوات الفضائية المحلية تتنافس بعرض المسلسلات المدبلجة وبحرص شديد يصل حد التكرار، الامر الذي ساعد على اشاعه بعض المفاهيم والسلوكيات والاشكال التي لا تنسجم والذوق العام. وكذا الحال بالنسبة الى التنافس الذي ساد القنوات العراقية ايام شهر رمضان في عرض المسلسلات الكوميدية الراقصة والمشهورة باستعراضاتها المبهرجة التي لا تتلائم مع حرمة وطقوس هذا الشهر. ومهما يكن من امر فان مثل هذه الظواهر تعد بمثابة انسياق الخطاب البصري السمعي وراء تقليد عروض الاخر التي لا تخلو من تاثير او تبنٍ رغم الاطلاع والمعرفة لها .

وكثرت في الاونة الاخيرة ظاهرة انتشار البرامج التي تعتمد على الاتصالات الهاتفية لغرض تنشيط السمة التفاعلية مع الجمهور ولكن هناك برامج تعتمد ايضا بالدرجة الاساس على الاتصالات، لكنها احدثت تراجعا في بنية البرامج وكيفيات معالجتها . فظهور البعض من عامة الناس على الهواء مباشرة وبدون تحضير مسبق يسفر احيانا عن اخطاء متعددة منها لغوية او معرفية وعدم دقة المعلومات التي قد تشوش افكار ومفاهيم الجمهور . فضلاً عن ما يحصل من مزاح خارج عن اللياقة الاجتماعية في المكالمات الهاتفية التي تحصل وقد تصل حد السب والشتم والتجاوزات الاخلاقية بما يثير النعرات وتحفيز الصراعات بين ابناء البلد الواحد المتعدد الاطياف ، ولكن الاشتراطات العلمية تكفل اساليب تمرير الخطاب عبر منافذ مخطط لها ووفق تنظيم مسبق باختيار العينات القادرة على ابداء وجهة نظرها بطريقة حضارية واصولية دون اللجوء الى كشف عيوب بعض الافراد بحجة العفوية او التلقائية التي تتسبب في زرع ثقافة محاطة بالسذاجة والاخفاقات . ومما يثير القلق من ان هناك دوافع قصدية تعمل على مثل هكذا خطاب وترسم له ارضية مشوقة وفضاءات جذابة حسب اختيار الديكورات وطريقة الاخراج واختيار الشباب والفتيات الجميلات الانيقات الامر الذي يلزم المشاهد بالمتابعة .

الدراما العراقية

تشكل الدراما معلماً كبيراً من معالم الثقافة العراقية في مساحة العرض البصري. وتاريخ مكانة الدراما العراقية تبين من خلال الرصيد الكبير كماً ونوعاً لشواخص درامية اثبتت جدارتها وكفاءتها الفكرية والجمالية المتمثلة بحسن الصنعة وطريقة بناءها المحملة بعناصر التشويق والامتاع والمعرفة. وقد تناولت الدراما العراقية مواضيع متعددة منها الاجتماعية والسياسية والتاريخية والدينية والكوميدية وبتجارب ناجحة حققت خطوات

هامة في بناء السيناريو للمسلسل التلفزيوني العراقي واضفاء المعالجات الاخراجية المتجددة بعيداً عن الترهل والسذاجة، الامر الذي بقي عالقاً في ذاكرة المتلقي وخبراته المتراكمة في المشاهدة والتذوق .

ان المفردة الأساسية في لغة السينما والتلفزيون هي الصورة ومدى ارتباطها بالحركة وبما تشكل من قيمة جمالية وحمل للمضمون المنبثق من الموضوع أو الحكاية[١٤]. ومما يمكن الاشارة اليه هو التنوع المختلف لمصادر الانتاج والرعاية للمسلسل الدرامي بما يلزم النص التلفزيوني تحقيق بعض الافكار والمفاهيم والاهداف المتوافقة مع الجهة المنتجة والراعية للعمل. وقد لعبت معالجات التجسيد الصوري دوراً مؤثراً في كشف صور الجرائم وبشاعة التعامل مع الانسان وحجم التدمير والمقابر الجماعية وصور الفساد الاداري والمالي والاجتماعي واشكاليات سلوك بعض الافراد ، فضلا عن كشف التاريخ المشرق لشخصيات هامة لعبت دوراً وطنياً مشرفاً في التصدي لقمع السلطات وجبروت الادارة. اضافة الى مظاهر ومشاهد التغني بصروح البلاد وفضاءاته الواسعة وقصص الحب والحياة الانسانية فيه عبر الدراما التلفزيونية.

ويتعدى ذلك التناول الى مستوى الدراما التي تبنى على قصص ومواضيع وحكايات درامية وافلام تعتمد التمثيل والتجسيد الصوري للوقائع على اساس البنى التكوينية لوحدة الزمان والمكان وبؤرة الحدث ووقائع نشوءه عبر دفق متنام من العقد الثانوية والحكايات الفرعية بمعالجات اللقطة وبناء المشهد التعبيري بتناغم حيوي بين الضوء واللون والشخصية والفعل والحركة والمكان والموسيقى بمقود سردي يذهب بالحدث تدفقاً لغاية الذروة عبر المعطيات الدرامية والنبض التعبيري.

وقد شكل الخطاب الثقافي العراقي في الدراما التلفزيونية مصدراً متبايناً في حالة تناول المادة التاريخية في الشاشة. ربما تحمل من الوقائع التأريخية التي تحتمل التأويل والتفسير والتحريف وتباين في وجهات النظر الدينية والسياسية والاجتماعية. وفي الوقت الذي تتنافس فيه القنوات التلفزيونية المرتبطة او التابعة لجهات بعينها، فأنها تتبارى على انتاج المنجز التلفزيوني الذي يتناول الواقعة المعينة والتي تشكل محط اختلاف وجدل تأريخي وديني ومذهبي. وان ذلك يتيح الحرية لأية جهة ان تنظر من الزاوية التي تعتقدها صحيحة باختلافات لا تخلو من الحساسية والتناقضات والصراعات التي تؤثر سلباً على الذائقة الوطنية المثقلة بالحقائق المتوازنة .

ولسنا بصدد اثارة الاراء النقدية لبعض الاعمال التلفزيونية العراقية جميعها ففيها من استهوى الجمهور وتعاطف معها وفيها من لا يرتقي الى مستوى ذائقة الجمهور. وما جرى من احداث سياسية واجتماعية ساخنة في البلاد جراء الحروب والصراعات السياسية منح القنوات التلفزيونية رغبة الرعاية لهذا المسلسل او غيره شريطة ان يتبنى وجهة نظر معينة وان يكشف الملف المعين وبما يختلف مع وجهات نظر متعددة تتبناها بعض القنوات الاخرى ، واصبح من الشائع على الكاتب ان يتخذ ويتناول مواضيع الملوك والرؤساء والقصور الحاكمة ودور النساء في هذه القصور مع ان الخطاب البصري يفتقر الى معالجة الانسان ، الفرد ، المواطن ، الذات ، المرء ونظام الحياة ، والمستقبل الذي تعرض الى انتهاكات الحروب وتداعياتها .

تجرات بعض الاعمال وكشفت عن مراحل تاريخية مهمة في حياة المجتمع والبلاد رغم ما شابها من عدم دقة في بعض المعلومات التاريخية. أما في الجوانب التقنية فقد يمس الخطاب البصري آليات الأداء للممثل

[١٤] فاضل الأسود: السرد السينمائي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠٠٧ ، ص١٤٠

العراقي وطرائق التعبير والتجسيد التي لا تخلو من الافراط احيانا . كما ان الاستخدام التعبيري لفلسفة الصورة عبر حركات الكاميرا واحجام اللقطات لبناء معمارية المشهد في اطر التكوين المشبعة بالقدر المطلوب من اضاءة المكان الذي تجري فيه الاحداث والتي قد نراها احيانا غير مستوفية الشروط التعبيرية للفكرة. ورغم ذلك تدور العجلة الدرامية عبر شاشات الفضائيات بخطابات متعددة وتقنيات مختلفة يجعلها تعيش اشكاليات لا تعبر عن هوية فنية واضحة مقارنة بنظيراتها العربية.

مشاكل في طريق الدراما

تلاقي الدراما التلفزيونية العراقية بعضا من المشكلات التي اثرت سلبا على مستوى اداءها ومنها :

- فقدان الرقابة .
- عدم وجود معاهد مختصة لتدريس الانتاج وعدم وجود شركات متخصصة في قطاع الانتاج بأستثناء بعض التجارب الناجحة كتجربة شركة الخليج للمخرج صلاح كرم وشركة سومر للمخرج فيصل الياسري وشركة الزقورة للمنتج عباس كامل وكذلك تجربة المنتج سيد مهدي رضا المعروفة بغزارة انتاجها التي تتنامى مع العصر بأستمرار.
- عدم وجود رابطة لكتاب السيناريو والاخراج .
- عدم وجود مراكز ابحاث ظاهرة الاستبيان وتقييم الاعمال وكشف ذائقة الجمهور .
- الظروف الامنية واختيارات الاماكن المطلوبة للتصوير.
- عدم وجود قانون للتلفزيون يعنى بشؤون الدراما ينظم لوائح العمل وتصنيف العاملين واستحقاقاتهم المالية .

١- فقدان الرقابة

تفتقر مؤسساتنا الفنية والاعلامية الى دور الرقابة الذي يشرف على فحص النصوص وتقييمها على اساس المعايير الابداعية والجمالية باعتبار الرقابة هيئة مهنية مختصة محايدة وعليها ان تعمل على وفق نظام شبكة لا تسمح بتمرير الافكار والمفاهيم الملوثة، وان ترفض الافكار المتخلفة والمتعصبة والمتطرفة، وتعمل على صيانة الخطاب الثقافي العراقي وابقائه حياً منفتحاً متسامحاً مواكباً للعصر وقويا مثقلا بالمعرفة وقابلا للجدل، وان يحمل قصدية التاويل وتعدد المعاني ويشتغل على مطرقة الشكل والمضمون والبناء الجمالي .

وبفقدان الرقابة كشفت لنا بعض المسلسلات الاجتماعية او التاريخية او السياسية بعض الهفوات الناجمة عن اخطاء معرفية بتاريخ وحقيقة الوقائع التاريخية كمسلسل سليمة باشا وابو طبر والدهانة والباب الشرقي واخر الملوك وغيرها. ويبقى دور الرقابة ضروريا من خلال سلطته التي لا تسمح بمرور العمل الفني الضعيف فنيا او العمل الذي يحمل الاساءة للذوق العام او التجاوز الذي يمس القيم الاجتماعية والروحية والاخلاقية او الذي يثير النعرات والتعصب بما يفكك نسيج المجتمع الواحد.

٢- معاهد ومؤسسات الانتاج

لا توجد في العراق مؤسسات او معاهد تدريس الانتاج التلفزيوني والسينمائي بمستوى التخصص وتعليم مناهج الاحتراف الفني عدا بعض المفردات التعليمية التي تعنى بتدريس مادة الانتاج في كلية الفنون الجميلة

ومعاهد الفنون كدروس مكملة للمنهاج. ورغم التجارب الانتاجية التي اسهمت منذ نشأة الدراما التلفزيونية في تطوير مستوى الدراما في العراق وافرزت العديد من اسماء الشركات الانتاجية التي يقودها المنتجون المتمرسون، لكنها لم تكن بمستوى الشركات الانتاجية الكبيرة التي تضم ورشا للديكور ومخازن للأزياء والاكسسوارات المختلفة واستوديوهات للخدع والحيل الفنية، بل وحتى العاملين هم انفسهم يتنقلون مع هذا المنتج وذاك وحسب التكليف. ولم نرى ضمن الخطط المستقبلية اي سعي لفكرة بناء مدن الانتاج السينمائي التلفزيوني والتي تحمل اسماء (المدن الاعلامية) في البلدان المجاورة التي تحظى بتعدد كبير من الاجواء المختلفة ومواقع متعددة للتصوير كالصحراء والجبال والبحيرات والغابات والمدن والقرى وغيرها.

٣- رابطة كتاب السيناريو

وتفتقر المؤسسات الفنية في العراق الى انشاء رابطة او اتحاد او هيئة او مجلس يضم كبار الكتاب الدراميين وكتاب السيناريو في العراق، والتي باتت له الحاجة كبيرة لصناعة النص السينمائي والتلفزيوني بشكل محترف ومستوف لشروط الصنعة فكرياً وجمالياً، سيما وانهم بمثابة العقول الراجحة والمختصة والمسؤولة عن تطوير الخطاب الثقافي العراقي في هذا الاختصاص الحيوي. وبوجود الرابطة نكون قد اطلعنا على خطط ترشيح المواضيع التي تتناول الوقائع التاريخية الدينية الاجتماعية والمواضيع المعاصرة ومعضلات المجتمع وازمات الفرد وتطلعاته.

٤-مراكز الابحاث

من المعايير والسياقات المهنية في عمل الاعلام والثقافة والفن هو جس نبض الجمهور ومعرفة درجة تذوقه وتقبله للمواد التلفزيونية المعروضة له. ذلك ما يتطلب تفعيل باب التحليل والبحث والدراسات لمعرفة وكشف طبيعة الخطاب التلفزيوني الذي من المفترض ان يعتمد على ظاهرة الاستبيان واحصاء اراء الجمهور وتصنيف مستوياتهم واجناسهم وتحديد اساليب واتجاهات الخطاب وطرق صياغته واشكال تنفيذه شكلا ومضمونا ومدى تقبل الجمهور له ومستوى التاثير الذي يتركه لدى المتلقي وردود الافعال التي قد تتولد من هذا الاعمال الفنية.

وهذه الصيغ لم تكن غريبة على الهيكل الوظيفي المهني لبناء المؤسسات الاعلامية والثقافية والفنية. اذ تعد مراكز الابحاث والدراسات من المفاصل التقويمية الكبيرة التي تساند في تطوير عمل هذه المؤسسات. ولكن اغلب مؤسساتنا الاعلامية وبالذات القنوات التلفزيونية لم تكن بمستوى التمسك بنظام استطلاع اراء الجمهور وجداول الاستبيانات، لأكتشاف مستويات التقبل والرفض والتفاعل الاستهجان للمادة التلفزيونية المعروضة .

٥-الظروف الامنية واختيار اماكن التصوير

لاقت الدراما التلفزيونية العراقية بعض المشكلات الانتاجية. اذ تلكئت بعض المحاولات الرامية الى انتاج دراما عراقية وتصويرها الاحداث في مواقع غير عراقية بسبب الظروف الامنية المقلقة في البلاد ، وهو ما فتح منافذ الاغتراب الذي اصبح عائقا في التجسيد التعبيري الذي يفترض دينامية الحدث المكونة من الفعل والشخصية والمكان وبما اعاق الخطاب من تمرير قناعاته في خلق اجواء البيئة والفضاء الدرامي الذي يحتوي منعطفات ذروة

الحدث وعقدته الرئيسية، سيما وان الذائقة العراقية عارفة جيدا بتفاصيل المكان وطرازه وتاريخه وشكله وحضوره التعبيري في الحدث، لأن ذاكرة المكان مفجر حقيقي للنمو الدرامي وتدفق مساره، مع اننا نطمح الى ان يتشبع السيناريو الذي ينتجه الكاتب العراقي بعدد واسع من التنقلات المكانية وخاصة خارج البلاد لأتاحة الفرصة للدراما العراقية ان تخوض تجارب حديثة كي تهيء حالها بأحدث الاجهزة واجمل واهم المواقع والاماكن خصوصا اذا ما استعانت بخبرات عالمية في التصوير والاخراج والتمثيل والمؤثرات البصرية لتقدم قصة بأمكانها ان تصبح للتداول والتذوق العالمي والخروج من المحلية والانغلاق .

خاتمة

بتعدد القنوات الفضائية التي تضع لعرضها البصري خطابا خاصا بها وتمرره من خلال الشاشة قد يتعامل المتلقي بكم كبير ومختلف، الامر الذي يطرح التنوع ويثير التشويش والتناقض والاختلاف وهذا مايتطلب الدراسات والبحوث والندوات والمؤتمرات لكافة وسائل الاعلام لخلق توافق وانسجام وتعدد بما يرضي المتلقي ويبعده عن القلق ويقدم له نكهة خطاب عراقية مستمدة من ذائقته . اضافة الى ذلك نحن بحاجة الى برنامج نقدي تخصصي يهتم بمتابعة معطيات الادب في القصة والرواية يناقش تحليليا ماوصلت اليه مدارس النقد في العراق من تقنيات في الصنعة والتناول وكيفيات تحويلها الى السينما والتلفزيون كقصص ووقائع درامية. وكذلك بحاجة الى برنامج تحليلي سينمائي يستضيف فيه اكثر من مختص في شؤون الاخراج والسيناريو ويعمل على اثارة الجدل التفسيري لفيلم منتخب يكون قد سجل اهمية كبيرة في الدرس السينمائي. وحبذا لو ينتج برنامجاً قادراً على طرح جلسات نقدية لرصد البرامج الشائعة في الشاشات العراقية وتقويمها بما ينمي رفعة الذوق وتهذيب متطلبات التذوق الفني لها .

وتفتقر البلاد حاليا الى المؤسسة التي تختص بشؤون الدراما التي تضم كبار النخب المختصة بالاخراج والسيناريو والتصوير والانتاج وبقية الاختصاصات العاملة فيها . وعلى هذه المؤسسة اذا ما انشئت ان تعقد ورش العمل والمؤتمرات الفنية لطرح الخطط الكفيلة بانتاج الاعمال مع تصنيفها حسب المواضيع . وان يدير هذه المؤسسة كفاءات مشهود لها في العمل والمنجز الابداعي ، وان تخصص لها ميزانية كافية وتصنع نظاما للاجور والميزانيات ولوائح العقود مع الفنانين الخارجيين و العمل على استقطاب العاملين في مختلف اختصاصاتهم ومنحهم رواتب واجور متقاربة على الاقل مع الدول المجاورة والشركات الانتاجية، وتخليص الفنان العراقي من التذمر والمعاناة وارتياد المقاهي والثرثرة اليومية عن العوز وشغف الحياة. وليس بالضرورة ان يكون عاملي هذه المؤسسة كلهم من الموظفين والملاك الدائم . ولكن يحبذ الاختيار والتكليف مع كل الكفاءات والمهارات بقدر من الاتفاق والعقود المعروفة انتاجيا .

ومن الضرورة ان تتعامل هذه المؤسسة مع هيئة استشارية من الكفاءات والنخب والاختصاصات في شوؤن علم النفس والاجتماع والطب والفن والثقافة والاعلام والفقه والشريعة والقانون والسياسة للتداول المبرمج بشان الخطط المطروحة والتي تلائم ثقافة المجتمع وتوجهات العصر.